

سورة الأنبياء

وقال رحمه الله: (سورة الأنبياء: سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، افتتحها بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ يعني - والله أعلم - انصر أهل الحق، أو انصر الحق، وقيل: افصل الحق بيننا وبين قومنا، وكان الأنبياء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وأمر محمداً أن يقول: ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وروى مالك عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾^(١).

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ فهذه الآية تدل على أن «الذكر» نوعان: محدث وغير محدث، كما تقول: ما جاءني من رجل عدل إلا قبلت شهادته. وصفة النكرة للتخصيص، وعندهم كل ذكر محدث، والمحدث في القرآن ليس هو المحدث في كلامهم، فلم يوافقوا القرآن، ثم إذا قيل: هو محدث، لم يلزم من ذلك أن يكون مخلوقاً بائناً عن الله، بل إذا تكلم الله به بمشيئته وقدرته وهو قائم به، جاز أن يُقال: هو محدث، وهو مع ذلك كلامه القائم بذاته وليس بمخلوق.

وهذا قول كثير من أئمة السنة والحديث. وقد احتج البخاري وغيره على ذلك بقول النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة»^(٢). ومعلوم أن الذي أحدثه هو أمره أن لا يتكلموا في الصلاة، لا عدم تكلمهم في الصلاة، فإن ذلك يكون باختيارهم. ومنهم من تكلم بعد النهي، لكن نُهوا

(٢) البخاري (١٥٢/٩).

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٥/١٥).

عن ذلك، ولهذا قال: يحدث من أمره ما يشاء) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كما أصاب كثيراً من الناس في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ فإنهم ظنوا أن المحدث والقديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المحدث والقديم في اصطلاح المتكلمين: هو ما لا أول لوجوده، وما لم يسبقه عدم، فكل ما كان بعد العدم فهو عندهم محدث، وكل ما كان لوجوده ابتداء فهو عندهم محدث، ثم تنازعوا فيما تقدّم على غيره: هل يسمى قديماً حقيقة أو مجازاً؟ على قولين لهم.

وأما اللغة التي نزل بها القرآن فالقديم فيها خلاف المحدث، وهما من الأمور النسبية، فالشيء المتقدم على غيره قديم بالنسبة إلى ذلك المحدث، والمتأخر محدث بالنسبة إلى ذلك القديم، وإن كانا كلاهما محدثين بالنسبة إلى من تقدمهما، وقديمين بالنسبة إلى من تقدماه، ولم يوجد في لغة القرآن لفظ «القديم» مستعملاً إلا فيما يُقدّم على غيره، وإن كان موجوداً بعد عدمه، لكن ما لم يزل موجوداً هو أحقّ بالقدم، وقد تنازع الناس في «القديم» هل يجعل من أسماء الله، فذهب طائفة كابن حزم إلى أنه لا يسمى قديماً بناء على أن الأسماء توقيفية، ولم يثبت هذا الاسم عن النبي ﷺ.

والمقصود أنه مستعمل في القرآن فيما تقدم على غيره كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفي صِلَابِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونَهُ هَذَا إِيَّاكَ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقوله عن إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٦]. فالمحدث يقابل هذا القديم.

وكان القرآن ينزل شيئاً فشيئاً، فما تقدم نزوله فهو متقدم على ما تأخر نزوله، وما تأخر نزوله محدث بالنسبة إلى ذلك المتقدم، ولهذا قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ فدل أن الذكر منه مُّحَدَّث ومنه ما ليس بمحدث.

والذكر كله مخلوق ومحدث مسبوق بالعدم عند القائلين بأن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، أو هو كله مخلوق مسبوق بعدم، وإن لم نقل مخلوق، فلا يكون للتخصيص عندهم معنى، لكن يبقى أن يُقال: فإذا كان موصوفاً بالحدوث الأخص،

وهو تقدم غيره عليه، فالحدوث الأعم، وهو كونه مسبوقاً بالعدم لازم لهذا، ولكن هذا لا يقتضي أن يكون نوع الذكر كذلك كما قد عُرف) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك احتجاجهم على أن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ بينت أن دلالة هذه الآية على نقيض قولهم أقوى؛ فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث وبعضه ليس بمحدث، وهو ضد قولهم.

والحدوث في لغة العرب العامة ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام؛ فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً، وما تقدم على غيره قديماً، وإن كان بعد أن لم يكن، كقوله تعالى: ﴿كَالْعُرْيُونِ أَفْكِدِيرٍ﴾ [يس: ٣٩]. وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبُوا بِهَذَا إِفْكٍ قَدِيرٍ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء]. وكذلك استدلالهم بقوله: «الأحد الصمد» على نفي علوه على الخلق. وأمثال ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضوع) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وإن احتج بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَّعُوهُ﴾ قيل له هذه الآية حجة عليك. فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما أكل إلا طعاماً حلالاً ونحو ذلك. ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخر، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَالْعُرْيُونِ أَفْكِدِيرٍ﴾. وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾، وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّبُوا بِهَذَا إِفْكٍ قَدِيرٍ﴾. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾﴾. وكذلك قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]. لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه. ولكن قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي صيرناه عربياً لأنه قد كان قادراً على أن ينزله عجمياً، فلما أنزله عربياً كان قد جعله

(١) الصفدية (٢/٨٤ - ٨٥).

(٢) درء تعارض العقل (١/٣٧٤ - ٣٧٥).

عربياً دون عجمي. وهذه مسئلة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ إن حدثه ليس كحدث المخلوقين. وذكر قول النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما شاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ وقال النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما شاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة»، وقد بوب البخاري في صحيحه لهذا باباً دل عليه الكتاب والسنة.

وهذا بخلاف المخلوق؛ فإنه ليس في عقل ولا شرع ولا لغة: أن الإنسان يسمى ما قام به من الأفعال والأقوال خلقاً له، ويقول: أنا خلقت ذلك، بل يقول: أنا فعلت وتكلمت، وقد يقول: أنا أحدثت هذه الأقوال والأفعال، كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور! فإن كل بدعة ضلالة»^(٣).

وقال: «المدينة حرم ما بين غير إلى ثور، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٤).

وإن كان مقصوده «بالإحداث» هنا أخص من معنى الإحداث بمعنى الفعل، وإنما مقصوده من أحدث فيها بدعة تخالف ما قد سن وشرع، ويقال للجرائم: الأحداث، ولفظ الأحداث يريدون به ابتداء ما لم يكن قبل ذلك. ومنه قوله: «إن الله يحدث من أمره ما شاء»^(٥) ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ ولا يسمون مخلوقاً إلا ما كان بائناً عنه كقوله: ﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]. وإذا قالوا عن كلام المتكلم: إنه مخلوق ومختلق فمرادهم أنه مكذوب مفترى كقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] ١. هـ^(٦).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٥٢١ - ٥٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٥).

(٣) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٤) وأحمد (٤/١٢٦ - ١٢٧) وابن أبي

عاصم (٣٢ - ٥٧) والحديث صحيح.

(٤) البخاري (٧٣٠٦)، ومسلم (١٣٧٠).

(٥) مرّ تخريجه.

(٦) مجموع الفتاوى (٦/٣٢٨ - ٣٢٩).

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

(وقال ﷻ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي لاتخذنا ذلك عندنا لا

عندكم؛ لأن زوجة الرجل وولده يكونان عنده بحضرته لا عند غيره) ا.هـ (١).

﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَاسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

(مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَنْ عِنْدَهُمْ﴾ فلو كان المراد بأن معنى «عنده» في قدرته كما يقول الجهمية لكان الخلق

كلهم في قدرته ومشيئته؛ لم يكن فرق بين من في السموات، ومن في الأرض، ومن

عنده؛ كما أن الاستواء لو كان المراد به الاستيلاء لكان مستويًا على جميع

المخلوقات؛ ولكان مستويًا على العرش قبل أن يخلقه دائماً) ا.هـ (٢).

﴿أَوِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

(فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه؛ إلا الله

سبحانه؛ ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة

فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا

اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو

كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً؛ إذ الله لا سميَّ له ولا مثل له؛ فكانت تفسد

لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية. وأما من جهة الربوبية فشيء آخر؛ كما

نقره في موضعه) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

[الأنبياء: ٢٢]، ولم يقل: لعدمتا، إذ هو قادر على أن يبقيهما على وجهه الفساد، لكن لا

يمكن أن تكون سالحة إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له، فإن صلاح الحي إنما هو

صلاح مقصوده ومراده، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من

الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا

اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ولم يقل لعدمتا؛ وهذا معنى قول لبيد:

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٢٢٦).

(٤) جامع الرسائل (٢/٢٠١).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٠٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١/٢٤).

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وهو كالدعاء المأثور: «أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم» ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فلا تطمئن القلوب إلا به، ولا تسكن النفوس إلا إليه، ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (إنه سبحانه رب كل شيء، وإله كل شيء، فإذا كانت الحركات الإرادية لا تقوم إلا بمراد لذاته، وبدون ذلك يفسد، ولا يجوز أن يكون مراداً لذاته إلا الله، كما لا يكون موجوداً بذاته إلا الله، علم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

وهذه الآية فيها بيان أنه لا إله إلا الله، وأنه لو كان فيهما آلهة غيره لفسدتا. وتلك الآية قال فيها: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لُحْمٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. ووجه بيان لزوم الفساد أنه إذا قُدِّرَ مدبران، ما تقدّم من أنه يمتنع أن يكونا متكافئين، لكون المقهور مربوباً لا رباً، وإذا كانا متكافئين امتنع التدبير منهما، لا على سبيل الاتفاق ولا على سبيل الاختلاف، فيفسد العالم بعدم التدبير، لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك، كما تقدم) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [أي وما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله]، وهذا بين لا يحتاج [إلى] أن يبين بالخطاب، فإن المقصود من الخطاب البيان، وبيان البين قد يكون من نوع العي، وبيان الدليل قد يكون محتاجاً إلى مقدمة واحدة، وقد يكون محتاجاً إلى مقدمتين، وإلى ثلاث وأكثر، فيذكر المستدل ما يحتاج إلى بيان دون ما لا يحتاج إلى بيان) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (أن يقال: «لو» لبيان علم نافع، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ولبيان محبة الخير وإرادته، كقوله: «لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثل ما عمل» ونحوه جاتز) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فأما الآية الأولى فدلالتها مغروزة في الفِطْر بالطبع، وذلك أنه من المعلوم بنفسه إذا كان مَلِكاً كل واحد منهما فَعَلَهُ فعل صاحبه، أنه ليس يمكن أن

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥١٥ - ٥١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/٥٥).

(٣) منهاج السنة (٣/٣٣٣).

(٤) منهاج السنة (٣/٣١٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٨/٣٨٤).

يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة، لأنه ليس يكون عن فاعليْن من نوع واحد فعلٌ واحد، فيجب [ضرورة] إن فعلاً معاً أن تفسد المدينة الواحدة، إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عطلاً، وذلك منتفٍ في صفة الإلهية، فإنه متى اجتمع فعلاً من نوع واحد على محل واحد، فسد المحل ضرورة، أو تمنع الفعل، فإن الفعل الواحد لا يصدر إلا عن واحد. فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

قلت: المعلوم بنفسه أنه لا يكون المفعول الواحد بعينه فعلاً لفاعليْن على سبيل الاستقلال ولا التعاون، ولا يكون المفعول الواحد بالعين معلولاً لعلتين مستقلتين، ولا مشاركتين، وهذا مما لا ينازع فيه أحد من العقلاء بعد تصوره، فإنه إذا كان أحدهما مستقلاً به، لزم أن يحصل جميع المفعول المعلول به وحده، فلو قُدِّرَ أن الآخر كذلك، لزم أن يكون كل منهما فعلاً كلاً وحده، وفِعْلُهُ له وحده ينفي أن يكون له شريك فيه، فضلاً عن آخر مستقل، فيلزم الجمع بين النقيضين: إثبات استقلال أحدهما ونفي استقلاله، وإثبات تفرد به ونفي تفرد به، وهذا جمع بين النقيضين.

ومن المعلوم بنفسه أن عين المفعول الذي يفعله فاعل، لا يشركه فيه غيره، كما لا يستقل به، فإنه لو شَرِكَ فيه غيره، لم يك مفعوله، بل كان بعضه مفعوله، وكان مفعولاً له ولغيره، فيمتنع وقوع الاشتراك فيما هو مفعول لواحد.

ولهذا كان المعقول من الاشتراك هو التعاون، بأن يفعل كل منهما غير ما يفعله الآخر، كالمعاونين على البناء: هذا ينقل اللِّين، وهذا يضعه. أو على حمل الخشبة: هذا يحمل جانباً، وهذا يحمل جانباً.

والمخلوقات جميعها يعاون بعضها بعضاً في الأفعال، فليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول ينفرد به، بل لا بد له من مشارك معاون مستغن عنه، ثم مع احتياجه إلى المشارك، له من يعارضه ويعوقه عن الفعل، فلا بد له من مانع يمنع التعارض المعوق. وهذا في كل ما يُقال إنه مؤثر بالطبع أو بالاختيار، أو شيء آخر إن قُدِّرَ.

ولهذا لم يكن في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء أصلاً، فلا واحد يفعل وحده إلا الله سبحانه.

وهذا مما يبيِّن ضلال هؤلاء المتفلسفة القائلين بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد. وجعلوا هذه قضية كلية ليدرجوا فيها واجب الوجود، ويقولوا: لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وهو ما يسمونه العقل.

فإن هذا القول وإن كان فساده معلوماً من وجوه كثيرة، لكن المقصود هنا أن هذه القضية الكلية لا تصدق في موضع واحد غير محل النزاع، ومحل النزاع عُلم فيه أن الفاعل واحد، لكن لم يُعلم فيه أن لا يفعل إلا واحداً.

وأيضاً فالوحدانية التي يستحق الرب أن يوصف بها، ليست هي الوحدة التي يدعونها، فإن تلك الوحدة التي يدعونها لا تصدق إلا على الممتنع الذي لا يمكن وجوده إلا في الذهن لا في الخارج، إذ يثبتون وجوداً مطلقاً أو مشروطاً بسبب الأمور الشبوتية، أو الشبوتية والعدمية. وهذا لا يكون إلا في الأذهان، كما قد قرروا ذلك في منطقتهم، وهو معلوم بصريح العقل، وقد بيّن هذا في موضعه.

والمقصود هنا أنهم لا يعلمون واحداً يصدر عنه شيء غير الله تعالى. فإذا قالوا: الشمس يصدر عنها الشعاع، فالشعاع لا يحصل إلا مع وجود جسم قابل له ينعكس عليه الشعاع، فصار لوجوده سببان: الشمس، والجسم المقابل لها، ثم له مانع، وهو الحُجُب التي تحول بين الشمس وبين ما يقبل الشعاع.

وهكذا النور الخارج من السراج ونحوه من النيران، لا يحصل إلا بالنار وبجسم يقبل انعكاس الشعاع عليه، وارتفاع الحجب الحائلة بينهما.

وكذلك تسخين النار، وتبريد الماء، وما يحصل بالخبز والماء من شُبَع وريٍّ، وسائر الآثار الحاصلة بالأغذية والأدوية وغير ذلك، فإنه لا بد من النار، ومن جسم يقبل أثرها، وإلا فالياقوت والسمندل ونحو ذلك لا تحرقه النار. وكذلك الغذاء لا ينفع إلا بقوة قابلة لأثره في الجسم، وأمثال ذلك كثيرة.

وكذلك الفاعل المختار كالإنسان، فإن حركته الحاصلة باختياره لا تحصل إلا بقوة من أعضائه يحتاج إليها، وليس هو الفاعل لأعضائه ولا لقواها، فهو محتاج في فعله إلى أسباب خارجة عن قدرته، وقد يحصل في بدنه من العوائق ما يعوقه عن الحركة، هذا فعله في نفسه، فأما الأمور المنفصلة عنه التي يُقال: إنها متولدة عن فعله، فمن الناس من يقول: ليست مفعولة له بحال، بل هي مفعولة لله تعالى، كما يقول ذلك كثير من متكلمي المثبتين للقدر.

ومنهم من يقول: بل هو مفعول له على طريق التولد، كما يقوله من يقوله من المعتزلة ويحكى عن بعضهم: أنه قال: لا فاعل لها بحال.

وحقيقة الأمر أن تلك قد اشترك فيها الإنسان والسبب المنفصل عنه؛ فإنه إذا

صَرَبَ بحجر فقد فعل الحَدْفَ، ووصول الحجر إلى منتهاه حصل بهذا السبب، وبسبب آخر من الحجر والهواء.

وكذلك الشيع والريّ، حصل بسبب أكله وشربه، الذي هو فعله، وبسبب ما في الطعام والشراب من قوة التغذية، وما في بدنه من قوة القبول لذلك، والله خالق هذا كله.

وهذا مما يبيّن أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول أصلاً، فالقلب الذي هو مَلِكُ البدن، وإن كان منه تصدر الإرادات المحرّكة للأعضاء، فلا يستقل بتحركه، إلا بمشاركة الأعضاء وقواها كما تقدم.

وولاة الأمور المدبّرون للمدائن والجيوش، لا يستقل أحدهم بمفعول، إن لم يكن له من يعينه عليه، وإلا فقولته وعمله أعراض قائمة به لا تجاوزه، وكل ما يصدر خارجاً عنه فمتوقف على أسباب أخرى خارجة عن محل قدرته وفعله.

وهذا كله مما يبين عجز كل مخلوق عن الاستقلال بمفعول ما، فلا يكون شيء من المخلوقات رباً لشيء من المخلوقات ربوبية مطلقة أصلاً، إذ رب الشيء من يربّه مطلقاً من جميع جهاته، وليس هذا إلا الله رب العالمين.

ولهذا مُنِعَ في شريعتنا من إضافة الرب إلى المكلفين، كما قال ﷺ: «لا يقل أحدكم: اسق ربك، أطعم ربك»^(١).

بخلاف إضافته إلى غير المكلفين، كقول النبي ﷺ [لمالك بن عوف] الجشمي: «أربُّ إبل أنت أم رب شاء؟»^(٢) وقولهم: رب الثوب والدار.

فإنه ليس في هذه الإضافة ما يقتضى عبادة هذه الأمور لغير الله، فإن هذا لا يمكن فيها، فإن الله فطرها على أمر لا يتغير، بخلاف المكلفين، فإنهم يمكن أن يعبدوا غير الله، كما عبد المشركون به من الجن والإنس غيره، فمَنَعَ من الإضافة في حقهم تحقيقاً للتوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه. ولهذا لم يكن شيء يستلزم وجود المفعولات إلا مشيئة الله وحده، فما شاء الله كان، وإن لم يشأ ذلك غيره، وما لم يشأ لا يكون، ولو شاءه جميع الخلق.

وإذا عُرف أنه ليس في المخلوقات ما هو مستقل بمفعول ولا معلول، فليس في

المخلوقات ما هو ربّ لغيره أصلاً، بل فعل كل مخلوق له فيه شريك، وقد يكون له مانع، وهذا مما يدل على إثبات الصانع تعالى ووحدانيته، كما نبّه عليه في غير هذا الموضوع.

والمقصود هنا أنه من المعلوم بنفسه أنه لا يكون اثنان مستقلّين بفعل، ولا يكون مفعول واحد قد فعله كل من الاثنان، ولا يكون نفس مفعول الفاعل الواحد قد شاركه فيه غيره، فحيث حصلت المشاركة لم يكن هناك مفعول واحد لفاعل واحد، فإن الوحدة تناقض الشركة، ومفعولات المخلوقات لا بد فيها من الاشتراك، لكن لا يفعل أحد الشريكين نفس فعل الآخر، فلا تفعل اليد ما تفعله العين، ولا يفعل الدماغ ما يفعله القلب، وإن كان كل منها مفتقراً إلى غيره في فعله. فكذلك السفينة إذا كان فيها ربّانان، أو كان للقرية رئيسان، أو للمدينة ملكان، لم يمكن أن يكون فعل هذا هو نفس فعل هذا، بل يفعل هذا شيئاً وهذا شيئاً، وما يفعله كل منهما لا يفعله الآخر.

فلهذا قال هذا الرجل؛ إنه ليس يكون عن فاعليّن من نوع واحد فعل واحد، وقوله: من نوع واحد، إن كان زيادة إيضاح، وإلا فلا حاجة إليه، فإنه لا يمكن أن يكون من فاعليّن فعل واحد، سواءً كان فعلهما نوعاً واحداً أو نوعين مختلفين، بل الامتناع هنا أظهر.

وقوله: «متى اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد فسَدَ المحلُ ضرورةً، أو تمانع الفاعل، فإن الفعل الواحد لا يصدر إلا عن فاعل واحد» فحقيقته أن يقال: هل يمتنع الفعل والحال هذه، فلا يمكن وقوعه حتى يُقال: إن المحل يفسد أو لا يفسد.

ولكن هو ظن - كما ظن من ظن من المتكلمين - أن الإله هو بمعنى الربّ، وأن دلالة الآية على انتفاء إلهين إنما دلت به على انتفاء ربّين فقط، وذلك يظهر بتقدير امتناع الفعل من ربّين.

وسنبين إن شاء الله أن الآية دلت على ما هو أكمل وأعظم من هذا، وأن إثبات ربّين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم، ولا أثبت أحد إلهين متماثلين، ولا متساويين في الصفات ولا في الأفعال، ولا أثبت أحد قديمين متماثلين، ولا واجبي الوجود متماثلين.

ولكن الإشراك الذي وقع في العالم إنما وقع بجعل بعض المخلوقات مخلوقة لغير الله في الإلهية بعبادة غير الله تعالى، واتخاذ الوسائط ودعائها والتقرب إليها، كما

فعل عباد الشمس والقمر والكواكب والأوثان، وعباد الأنبياء والملائكة أو تماثيلهم ونحو ذلك.

فأما إثبات خالقين متماثلين فلم يذهب إليه أحد من الآدميين.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِيَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوبُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدْبِرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِزُّ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) [المؤمنون]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٩٠) [يوسف]، والرسل دعوا الخلق إلى توحيد الإلهية، وذلك متضمن لتوحيد الربوبية. كما قال كل منهم لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿وَسْتَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٩٠) [الزخرف]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٩١) [الأنبياء]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وإلا فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرّون به، وذلك وحده لا ينفع. وهؤلاء الذين يريدون تقرير الربوبية من أهل الكلام والفلسفة، يظنون أن هذا هو غاية التوحيد، كما يظن ذلك من يظنه من الصوفية، الذين يظنون أن الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية.

وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء وهؤلاء من الجهل بالتوحيد، الذي بعث الله به الرسل، وأنزل الكتب.

فإن هذا التوحيد - الذي هو عندهم الغاية - قد كان مشركو العرب يقرّون به، كما أخبر الله عنهم، ولكن كثير من الطوائف قصّر فيه، مع إثباته لأصله، كالتقديرية الذين يخرجون أفعال الحيوان عن قدرة الله ومشيبته وخلقته، ولازم قولهم حدوث محدثات كثيرة بلا حدث.

وأما الفلاسفة القائلون بقدوم العالم، فلازم قولهم أن الحوادث جميعها ليس لها فاعل. ثم هم يجعلون بعض مبدعات الرب هي الفاعلة لما سواه، كما يزعمون مثل ذلك في العقل.

ومشركو العرب كانوا خيراً في التوحيد من هؤلاء، فإن هؤلاء غايتهم أن يثبتوا أسباباً لبعض الموجودات، لكن الأسباب لا تستقل، بل تفتقر إلى مشارك، وانتفاء معارض، وقد يثبتون أسباباً وعللاً لا حقيقة لها، كالعقول التي يزعمون أنها أبدعت ما سواها.

وأما المجوس الثنوية فهم أشهر الناس قولاً بالهين، لكن القوم متفقون على أن الإله الخبير المحمود هو النور الفاعل للخيرات، وأما الظلمة التي هي فاعل الشرور فلهم فيها قولان: أحدهما: أنه محدث حدث عن فكرة رديئة من النور، وعلى هذا فتكون الظلمة مفعولاً للنور، لكنهم جهال أرادوا تنزيه الرب عن فعل شر معين، فجعلوه فاعلاً لأصل الشر، ووصفوه بالفكرة الرديئة التي هي من أعظم النقائص، وجعلوها سبباً لحدوث أصل الشر.

والقول الآخر قولهم: إن الظلمة قديمة كالنور.

فهؤلاء أثبتوا قديمين، لكن لم يجعلوهما متماثلين ولا مشتركين في الفعل، بل يمدحون أحدهما ويذمّون الآخر.

ولذلك من قال من الملاحدة كمحمد بن زكريا الرازي الطيب، وأمثاله الذين اتبعوا قول طائفة من الملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدماء الخمسة التي هي: واجب الوجود، والنفس، والهيولى، والدهر، والخلاء، وأن سبب حدوث العالم أن النفس تعلقت بالهيولى، فلم يمكن واجب الوجود أن يخلصها منها حتى تمتزج بالعالم فتذوق ما فيه من الشرور.

وسبب قوله هذا القول أنه كان يقول بحدوث العالم، وطولب بسبب حدوثه، فأثبت نوعاً من الحركات سماها الحركة الفلتية، وشبهها بالريح والصوت الذي يخرج من الإنسان بغير اختياره، وجعل عشق النفس للهيولى من هذا الباب، وظهر للناس جهله في إلحاده، فإن هذه الحركة على أي وجه كانت حادثة بعد أن لم تكن، فيُسأل عن سبب حدوثها، كما يُسأل عن سبب حدوث حركة أخرى، فلم يتخلص بهذا الجهل من السؤال.

والمقصود أن كثيراً من أهل الشرك والضلال قد يضيف وجود بعض الممكنات، أو حدوث بعض الحوادث، إلى غير الله. وكل من قال هذا لزمه حدوث الحادث بلا سبب. وهم مع شركهم، وما يلزمهم من نوع تعطيل في الربوبية، لا يثبتون مع الله شريكاً مساوياً له في أفعاله ولا في صفاته.

وأما إثبات الأسباب التي لا تستقل بالأثر، بل تفتقر إلى مشارك معاون، وانتفاء معارض مانع، وجعلها مخلوقة لله، هو الواقع الذي أخبر به القرآن، ودل عليه العيان والبرهان، وهو من دلائل التوحيد وآياته، ليس من الشرك بسبيل، فإن ذلك مما يبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول من المفعولات.

والمقصود هنا أن هؤلاء اعتقدوا أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. إنما يدل على نفي الشركة في الربوبية، وهو أنه ليس للعالم خالقان، ثم صار كل منهم يذكر طريقاً في ذلك.

فهذا الفيلسوف ابن رشد قرر هذا التوحيد كما تقدم) ا. هـ^(١).

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (١٣٣).

(وقال حرب بن إسماعيل: سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول: ليس في النزول وصف. قال: وقال إسحاق: لا يجوز الخوض في أمر الله كما يجوز الخوض في أمر المخلوقين، لقول الله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (١٣٣) ولا يجوز أن يتوهم على الله بصفاته وفعاله بفهم ما يجوز التفكير والنظر فيه [من] أمر المخلوقين، وذلك أنه يمكن أن يكون الله موصوفاً بالنزول كل ليلة - إذا مضى ثلثها - إلى السماء الدنيا، كما شاء، ولا يُسأل: كيف نُزولُهُ؟، لأن الخالق يصنع ما شاء كما شاء) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأولئك يتعلقون بقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله؛ بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء؛ بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت؛ فإن الله لا مكره له، ولكن ليعزم المسألة»^(٣) وذلك أنه إنما يقال: افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرهاً فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه، والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما شاء، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] و﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على

(١) درء تعارض العقل (٩/ ٣٣٧ - ٣٤٨).

(٢) الاستقامة (١/ ٧٨).

(٣) مرّ تخريجه.

ما يشاء، وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون إنه لم يشأ كل ما كان، بل لا يشاء إلا الطاعة، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه، وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً.

فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة، كما أن الآيات التي ما يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك تدل على فساد قول المجبرة، وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى، وكلا القولين باطل، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره، وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر، هذا يقول ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا؟ فكانما فُقيء في وجهه حب الرمان، فقال: أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم، أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟» ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض: إنا قد نهينا عن هذا.

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها، بل آمن بما يحتج، صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض) ١. هـ^(١).

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فأكثر إعراض الخلق عن الحق من عدم معرفة الحق، كما قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ١. هـ^(٢).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾ فأخبر سبحانه أنه يوحي إلى كل رسول بنفي الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٢٥ - ٢٢٧).

(٢) تفسير آيات أشكلت (١/٢٩٠ - ٢٩١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٢٥٦).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) ﴿فبين أنه لا بد أن يوحى بالتوحيد إلى كل رسول، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٢٥) [الزخرف]؟ فبين أنه لم يشرع الشرك قط، فهذان النصان قد دلا على أنه أمر بالتوحيد لكل رسول، ولم يأمر بالإشراك قط) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (فإن الأنبياء جميعهم وأممهم كانوا مسلمين، مؤمنين، موحدين، لم يكن قط دين يقبله الله غير الإسلام. وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْلَمْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٢٥) [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي» (٢) وقد أخبر الله في القرآن عن جميع الأنبياء وأممهم - من نوح إلى الحواريين - أنهم كانوا مسلمين مؤمنين، كما قد بسط في موضع آخر) ا. هـ (٣).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (١٦)

(وقد قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (١٦) فالاتخاذ فعل من الأفعال، وقد نزه سبحانه نفسه عنه. فعلم أن من الأفعال ما نزه سبحانه نفسه عنه. والجبرية عندهم لا يُنزه عن فعل من الأفعال) ا. هـ (٤).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ (١٦)

﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ (١٧) ﴿بَلْ نَقْدِفُ إِلَيْهِ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَآ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ آيَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾ (٢١) ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (٢٣)

(١) مجموع الفتاوى (١٠٧/٢٠). (٢) مرّ تخريجه.

(٣) الرد على المنطقيين (٢٩٠ - ٢٩١). (٤) منهاج السنة النبوية (١٠٥/٥).

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْخَلْقَ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٤٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا مَبْجُونَةً بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٤٦﴾

قال رحمه الله في تفسير الآيات السابقة: (قال تعالى فنزه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العايب الذي لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها، فإن هذا فعل الجاد الذي يجيء بالحق، كما قال إبراهيم لما آتاه الله رشده من قبل التوراة والقرآن: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبِّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء] فهو لما قال ما قال: ﴿قَالُوا أَحِثَّنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فالذي يأتي بالحق خلاف اللاعب، فإنه يقصد أن يخبر بصدق ويأمر بما ينفع، وهو العدل، بخلاف اللاعب العايب فإنه ليس مقصوده هذا، بل اللهو واللعب.

ولهذا قد يُشتم الإنسان على وجه اللعب، ويفعل به أفعال منكرة فلا ينكر ذلك كما ينكره من الجاد المحقق، ولهذا كان عامة اللهو باطلاً ليس له منفعة، كما قال النبي ﷺ: «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رمية بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبة امرأته، فإنهن من الحق»^(١). فالحق ضد الباطل، واللهو باطل، ولهذا تنزه سبحانه عن أن يخلقهما باطلاً.

وتارة يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿١١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿الدخان﴾^(٢) فاللاعب صاحب باطل لا صاحب حق. ولهذا لما دخل عمر على النبي ﷺ وعنده الأسود بن سريع ينشده فأسكته مرتين أو ثلاثاً، قال: «من هذا الذي تسكتني له؟ قال: هذا رجل لا يحب الباطل»^(٣)، فإن عمر كان لا يحبه ولا يصبر على صاحبه، والنبي ﷺ كان أحلم وأصبر من عمر، فهو أيضاً لا يحب الباطل، لكنه يصبر ويحتمل منه ما لم يكن محرماً، ولكن هو لا منفعة فيه لفاعله، فإذا فعله احتمله عليه؛ فهذا بيان قول من فسّر اللاعب بالعايب وله نظائر.

(١) مرّ تخريجه. (٢) في الأصل: (ما خلقناهما لاعيين).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/٣٤٥) (٤/٢٤) والطبراني في «الكبير» (٥٠ - ٨٤٤) قال في المجمع (٦٦/٩): ورجالهما ثقات وفي بعضهم خلاف، وذكره في المجمع (٨/١١٨) رواه أحمد والطبراني بنحوه بأسانيد، ورجال أحدهما عند أحمد رجال الصحيح.

والذين فسّروا بالولد والزوجة قالوا ذلك لأن من المشركين من جعل لله ولداً وصاحبة، وقالوا: إنه ضاهى الحق، وهم يسمون المرأة لهواً والولد لهواً، وقال ابن قتيبة: «أصل اللهو الجماع وكُنِيَ عنه [باللهو] كما كُنِيَ عنه بالسر».

والنبي ﷺ قد جعل ملاعبة الرجل امرأته من اللهو الذي ليس باطل، والرّب منزّه عن اللعب مطلقاً، فإن الذي يلعب امرأته إنما يفعل ذلك لحاجته إلى المرأة، وحكمة ذلك بقاء النسل، والله تعالى منزّه عن الولادة، فتضمنت هذه الآية تنزيهه عن الخلق عبثاً لا لحكمة، فإن ذلك لعب وعبث، وتضمنت تنزيهه عن أن يتخذ ما يُلهى به كالمرأة والولد، ولهذا بيّن بعد ذلك أنه إنما خلق ذلك بالحق، وأنه منزّه عن الأولاد، وقال: ﴿بَلْ نَقَدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾، واللهو كله باطل في حق الله تعالى، وإن كان بعضه من الحق في حق العباد.

وهو ﷺ قال: ﴿لَوْ أُرِدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾، فإن ما يلهو به اللاهي يكون عنده لا يكون بعيداً عنه، ونحن خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فكيف يكون هذا لعباً؟ ﴿بَلْ نَقَدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٧) ثم قال: ﴿وَلَكُم مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِندَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٨) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠)؛ ثم رد على من أشرك به؛ ثم حكى قول المشركين الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً، قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢١) لَا يَسْقُوتُهُمْ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّن دُونِهِ فَذَلِك نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩) فهذه صفة الملائكة، والمسيح والعزير ونحوهما أيضاً هم بهذه الصفة، فإنهم عباد مكرمون، قال تعالى عن المسيح: ﴿إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقال: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ١. هـ (١).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢١).

(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢١) إلى قوله: ﴿وَكَذٰلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ﴾ فإذا نفى عن مخلوق - ملك أو نبي أو غيرهما - ما كان

من خصائص الربوبية، وبين أنه عبد الله، كان هذا حقاً واجب القبول، وكان إثباته إطراء للمخلوق، فإن رفعه عن ذلك كان عاصياً بل مشركاً، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين عن ابن عباس [عن] ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلِنَّكَ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول، وأنهم بأمره يعملون، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به؛ فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله، كما قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وأعمالهم تابعة لأمره، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به، فهم مطيعون لأمره سبحانه.

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار، فقال: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وقد ظن بعضهم أن هذا تأكيد، وقال بعضهم: بل لا يعصونه في الماضي، ويفعلون ما أمروا به في المستقبل. وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً، فإذا قال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون فإن العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به، وقال: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لبيان أنهم قادرون على فعل ما أمروا به، فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية. والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين، إما أن لا يكون قادراً، وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(٢) الرد على الأخناني (٢١٣ - ٢١٤).

(١) مرّ تخريجه.

وقد وصف الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٦) لَا يَسْئِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾، فالملائكة مصدقون بخبر ربهم، مطيعون لأمره، ولا يخبرون حتى يخبر، ولا يعملون حتى يأمر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْئِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٦) لَا يَسْئِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾) فبين سبحانه أنهم عباد أكرمهم وأنهم لا يسبقونه بالقول، فلا يقولون حتى يقول، وهم بأمره يعملون، فلا يعملون حتى يأمرهم، وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وأنهم من خشيته مشفقون) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٦) لَا يَسْئِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾، فأخبر أن الملائكة لا تسبقه بالقول، ولا تعمل إلا بأمره، فضلاً عن أن يكون ملك خلق كل شيء) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (١٦) لَا يَسْئِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾) فذكر هذا الوعيد في الملائكة وخصهم بالذكر تنبيهاً على أن دعوى الإلهية لا تجوز لأحد من المخلوقين لا ملك ولا غيره، وأنه لو قدر وقوع ذلك من ملك من الملائكة لكان جزاؤه جهنم، فكيف من دونهم. وهذا التخصيص أفرد الله تعالى بالإلهية) ا.هـ (٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣) .
 ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣) قال ابن

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٦٠ - ٦٢).

(٢) الصفدية (١/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٣) الجواب الصحيح (٥/٢٠٦).

(٤) الاستغاثة (٢٣٩ - ٢٤٠).

عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل^(١) و«الفلك» في اللغة هو الشيء المستدير، ومنه يقال: تفلك ثدي الجارية، إذا استدار، ومنه: فلكة المغزل، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنها أعلا الجنة، وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن»^(٢).

والأعلى لا يكون الأوسط إلا إذا كان الشكل مستديراً؛ بخلاف المربع والمثلث ونحوهما من الأشكال فإنه لا يكون أعلاه أوسطه) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قالوا: فلكة مثل فلكة المغزل) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

فأخبر في الآيتين أن القمر في الفلك؛ كما أخبر أنه في السموات، ولأن الله أخبر أنا نرى السموات بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثم أتبع البصر كرتين يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [الملك]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق] وأمثال ذلك من النصوص الدالة على أن السماء مشاهدة؛ والمشاهد هو الفلك؛ فدل على أن أحدهما هو الآخر.

وأما قوله: هل الشمس والقمر تُحَرِّكَانِ بدون الفلك أم حركتهما بحركة الفلك؟ فيه نزاع أيضاً؛ لكن جمهور الناس على أن حركتهما بحركة الفلك.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فلا يمنع أن يكون ما ذكره من أنهم يسبحون تابعاً لحركة الفلك، كما في الليل والنهار، فإن تعاقب الليل والنهار، تابع لحركة غيرهما، وقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يتناول الليل والنهار والشمس والقمر، كما بين ذلك في سورة الأنبياء.

(١) عزاه صاحب الدر (٣١٨/٤) لابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» ولم أجده عند ابن جرير بهذا اللفظ ولكن بلفظ قريب من هذا.

(٢) البخاري (٢٧٩٠). (٣) بيان تليس الجهمية (٤/٢١٢ - ٢١٣).

(٤) شرح العمدة - الصلاة (٥٥٣ - ٥٥٤).

وكذلك في سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَيْلٌ نَسَلَحَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿١٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٦﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

فتناول قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ما تقدم: الليل والنهار، والشمس كما ذكر في سورة الأنبياء، وإذا كان أخبر عن الليل والنهار بما أخبر به من أنهما يَسْبَحَانِ، وذلك تابع لحركة غيرهما، مثل ذلك ما أخبر به من أن الشمس والقمر يسبحان تبعاً للفلك، وعلى ذلك أدلة ليس هذا موضع بسطها) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل^(٢). وهذا صريح بالاستدارة والدوران، وأصل ذلك: أن «الفلك في اللغة» هو الشيء المستدير، يقال تفلَّك ثدي الجارية إذا استدار، ويقال لفلكة المغزل المستديرة فلكة: لاستدارتها.

فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أن «الفلك» هو المستدير، والمعرفة لمعاني كتاب الله إنما تؤخذ من هذين الطريقتين: من أهل التفسير الموثوق بهم من السلف، ومن اللغة التي نزل القرآن بها، وهي لغة العرب) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وقد ذكر الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره: ثنا أبي، يعني الإمام أبا حاتم الرازي، ثنا نصر بن علي، حدثني أبي، عن شعبة بن الحجاج، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، قال: في فلكة مثل فلكة المغزل.

وذكر عن أبي أحمد الزبيري، عن شريك، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن

(١) مجموع الفتاوى (٦/٥٩٣ - ٥٩٤). (٢) مر الكلام عليها.

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٨٧ - ٥٩٥ - ٥٦٧).

عباس في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، قال: يدورون في أبواب السماء كما يدور المِغزَل في الفلْكَة.

وقال: ثنا الحسن بن الحسن، ثنا إبراهيم بن عبد الله الهروي، ثنا حجاج، عن أبي جريح، أخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً يقول: ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، قال: النجوم، والشمس، والقمر، فلْكَة كَفَلْكَة المِغزَل. وقال مثل ذلك: ل«الحُسابان» - يعني مجاهداً: حُسْبَانُ الرَّحَى^(٢)، وهو سَفوْذُها القائم الذي يدور عليه. و«الحُسابان» في اللغة: سهام قصار، الواحدة «حُسابانة». وكان مجاهد يفسر قوله: ﴿أَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن]. بهذا. وقال غيره: هو من «الحساب»؛ قيل: هو مصدر؛ وقيل: جمع «حِساب» كَشِهَابٍ وشُهَبَانٍ.

قال مجاهد: ولا يدور المغزل إلا بالفلْكَة، ولا تدور الفلْكَة إلا بالمغزل؛ ولا يدور الحُسابان إلا بالرحى، ولا يدور الرحى إلا بالحُسابان، قال: فكذلك النجوم، والشمس، والقمر، هي في فلْك لا يَدُمْنَ إلا به، ولا يدوم إلا بهتً، وقال: فنَقَرُ بإصبعه. قال: فقال مجاهد: «يَدُمْنَ كذلك» كما نقر. قال: فالحُسابان والفلْك يصيران إلى شيء واحد، غير أن الحُسابان في الرحى، والفلْك في المِغزَل، كل ذلك عن مجاهد. قلت: قوله: «لا يدوم إلا به»، أي لا يدور إلا به، ومنه «الدَّوامة» - بالضم والتشديد، هي فلْكَة يرميها الصبِّي بخيط، فتدوم على الأرض، أي تدور، ومنه تدويم الطير، وهو تحليقه، وهو دورانه في طيرانه ليرتفع إلى السماء، وقوله: «نقر بإصبعه»، يعني: نقر بها من الأرض وأدارها ليشبه بذلك دوران الفلْك.

وقال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، ثنا ابن وهب، ثنا السري بن يحيى، قال: سألت رجل الحسن البصري عن قوله: ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال: يعني استدارتهم^(٣).

وقال بنده: ثنا أبي، ثنا عبيد الله بن عائشة، ثنا عبد الواحد بن زياد، ثنا أبو روق، سمعت الضحاك في قوله: ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، قال: يدور ويذهب^(٤). ثنا

(١) كذا بالأصل، وصوابه: ابن.

(٢) عزاه صاحب الدر (٣١٨/٤) لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) وجدت قريباً منه أو بمعناه وهو عند ابن أبي حاتم وليس عندي.

(٤) لم أجده لأنه عند ابن أبي حاتم.

أبي، ثنا مسروق بن المرزبان، ثنا يحيى بن أبي زائدة، ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد^(١): ﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، قال: الفلك كحديدة الرحي، وهو قطب كحديد، وهو السّفود القائم الذي يسمى أيضاً «حُسياناً».

علي بن الحسين بن حنيد، ثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا مروان بن معاوية، عن جويبر، عن الضحّاك، ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، قال: «الفلك» السرعة والجري في الاستدارة، و«يَسْبَحُونَ» يعملون^(٢). يريد أن لفظ «الفلك» يدل على الاستدارة وعلى سرعة الحركة كما في دوران فلكة المغزل ودوران الرحي.

وقال: ثنا أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ يقول: دوران، وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، يعني يجرون^(٣). وعن إياس بن معاوية، قال: السماء على الأرض مثل القبة.

وقد بسط القول في ذلك بدلائله من الكتاب والسنة في غير هذا الموضع.

ولفظ «الفَلَكُ» في لغة العرب يدل على الاستدارة. قال الجوهري: «فَلَكَةٌ المِغْزَلُ»، سُميت بذلك لاستدارتها. و«الفَلَكَةُ» قطعة من الأرض أو الرمل تستدير وترتفع على ما حولها، والجمع «فَلَكٌ». وقال: ومنه قيل: فَلَكَ ثديُّ الجارية تغليكاً، وتَفَلَكَ: استدار. قلت: و«السباحة» تتضمن الجري بسرعة، كما ذكر ذلك أهل اللغة) ا.هـ^(٤).

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ﴾ وليس هما في الأحياء، والله أعلم) ا.هـ^(٥).

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَخِذُونَهُمْ أَهْزَاؤُهُمْ أَهْزَاؤُهُمْ الَّذِي يَذُكُرُ الْهَنَئِكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾.

(١) ابن جرير (٢٢/١٧) وعزاه صاحب «الدر» (٣١٨/٤) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) لم أجده.

(٣) عزاه صاحب «الدر» (٣٧٨/٤) لابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر.

(٤) الرد على المنطقيين (٢٦١ - ٢٦٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٣٧/٤) وهو جواب في الخضر واليابس، واحتج ابن الجوزي بهذه الآية في إثبات وفاتهم، والكلام ليس في «زاد المسير» ولكنه في الموضوعات (١٩٩/١) ولابن الجوزي رسالة في إثبات وفاة الخضر؛ ولكنها مفقودة.

قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا يغضبون من ذكر الرحمن بالباطل كما يغضبون من ذكر آلهتهم بالحق (١) هـ.

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .
(ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف]
وقد قيل إن «من» هنا للبدل أي بدلاً منكم، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدلاً من الرحمن وأنشدوا:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات

وقالوا: معناه بدلاً من ماء زمزم. وفي حديث أبي سعيد الذي رواه مسلم في صحيحه «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (٢) هـ. (٣)

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدلاً عن الرحمن. هذا أصح القولين كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي لجعلنا بدلاً منكم، كما قاله عامة المفسرين، ومنه قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات

أي بدلاً من ماء زمزم. فلا يكلاً الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره إلا الله (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ، وأصح القولين في الآية أن معناه من ذا الذي يكلوكم بدلاً من الله؟ من الذي يدفع الآفات عنكم التي تخافونها من الإنس والجن؟ (٥) هـ.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا ﴿٤٧﴾﴾ .

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي لا تنقص

(٢) مسلم (٢٧٤٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/٢٣٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/٤٤١).

(٣) الاستغاثة (١٦٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٧٢).

من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها، فدل على أن ذلك ظلم يُنزّه الله عنه) ا.هـ (١).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٦).

قال رحمه الله: (مرّ عليّ ﷺ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ وأظنه قلب الرقعة (٢)).

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر، وبين الأنصاب والأزلام في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) [المائدة] ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وثبت عن علي بن أبي طالب ﷺ: أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ وروي أنه قلب الرقعة عليهم، وقالت طائفة من السلف (٤): الشطرنج من الميسر، وهو كما قالوا: فإن الله حرم الميسر) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وقد شبه أمير المؤمنين علي ﷺ لاعتبارها بعباد الأصنام حيث قال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ كما شبه النبي ﷺ شارب الخمر بعباد الوثن في الحديث الذي في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «شارب الخمر كعابد وثن» (٦) ا.هـ (٧)).

وقال رحمه الله: (وروى بإسناده عن علي: أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج، وقال:

(١) منهاج السنة (١/١٣٥ - ١٣٦).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥١٨) وعزاه في الدر (٤/٣٢١) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» وابن المنذر، ورواه الإمام أحمد في «الورع» (ص ٧٤).

(٣) جامع الرسائل (٢/٢٦٧ - ٢٦٨) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٢٨ - ٢٤٢).

(٤) هذا مروى عن علي بن أبي طالب وغيره.

(٥) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٤٤).

(٦) البزار (٢٩٢٥) كشف الأستار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٧٠) رواه البزار وقال: رواه البزار وفيه فطر بن خليفة وهو ثقة وفيه كلام لا يضر. وكذا رواه الحارث بن أسامة في مسنده كما في كنز العمال (١٣١٧٦) والمطالب العالية (١٧٧٧) وابن عدي في الكامل (٢/٧٠٣) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/٢٥٣) والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٧) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٤٥).

«ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟» لأن يمس أحدكم جمرًا حتى يُطْفَأَ خير له من أن يمسها) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ شبههم بالعاكفين على الأصنام، كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «شارب الخمر كعابد وثن» والخمر والميسر قرينان في كتاب الله تعالى. وكذلك النهي عنها معروف عن ابن عمر، وغيره من الصحابة) ١. هـ^(٢).

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُم كِبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

(وقال إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُم كِبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطُقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فلم يعب إبراهيم أصنامهم وآلهتهم التي يعبدون بالعجز عن الكلام إلا وأنَّ إِلَهُهُ متكلم قائل) ١. هـ^(٣).

﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٤﴾﴾.

(كقوله: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٤﴾﴾ فسلب النار طبيعتها) ١. هـ^(٤).

﴿وَجَبَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

(وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وَجَبَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾. ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطًا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والفرات) ١. هـ^(٥).

﴿وَلُوطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَبَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبَيْثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاعِدٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

(وقال عن قوم لوط: ﴿وَجَبَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبَيْثَ﴾ وقال اللوطية عن لوط وأهله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] قال مجاهد^(٦): عن أدبار الرجال، ويقال في دخول الغائط: «أعوذ بك من الخبث والخبائث، ومن الرجس النجس الخبيث المخبث»، وهذه النجاسة تكون من الشرك

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/٢١٨ - ٢١٩) وحديث شارب الخمر مرّ تخريجه.

(٣) درء تعارض العقل (٢/٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/١٩٢).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٠٦).

(٦) ابن جرير (١/٢٠).

والنفاق والفواحش والظلم ونحوها، وهي لا تزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها، فمن تاب منها فقد تطهر، وإلا فهو متنجس، وإن اغتسل بالماء من الجنابة فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة، ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه؛ فإن تلك نجاسة لا يرفعها الاغتسال بالماء، وإنما يرفعها الاغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات.

وهذا معنى ما رواه ابن أبي الدنيا وغيره: ثنا سويد بن سعيد، ثنا مسلم بن خالد، عن إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، قال: لو أن الذي يعمل - يعني عمل قوم لوط - اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً، ورواه ابن الجوزي، وروى القاسم بن خلف في «كتاب ذم اللواط» بإسناد عن الفضيل بن عياض أنه قال: «لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقي الله غير طاهر». وقد روى أبو محمّد الخلال عن العباس الهاشمي ذلك مرفوعاً، وحديث إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود: «اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا»، ورفع مثل هذا الكلام منكر؛ إنما هو معروف من كلام السلف.

وكذلك روي عن أبي هريرة وابن عباس قالا: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته: «من نكح امرأة في دبرها أو غلاماً، أو رجلاً: حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم، ويحبط الله عمله، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، ويجعل في تابوت من نار، ويسمر عليه بمسامير من حديد، فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده» قال أبو هريرة، هذا لمن لم يتب. وذلك أن تارك اللواط متطهر كما دل عليه القرآن، ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجساً؛ فإن ضد الطهارة النجاسة؛ لكن النجاسة أنواع مختلفة: تختلف أحكامها.

ومن ههنا غلط بعض الناس من الفقهاء؛ فإنهم لما رأوا ما دل عليه القرآن من طلب طهارة الجنب بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْفِرُوا﴾ [المائدة: ٦] قالوا: فيكون الجنب نجساً، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن لا ينجس»^(١) لما انخنس منه وهو جنب، وكره أن يجالسه، فهذه النجاسة التي نفاها النبي ﷺ هي نجاسة الطهارة بالماء التي ظنها أبو هريرة، والجنابة تمنع الملائكة أن تدخل بيتا فيه جنب، وقال أحمد: إذا وضع الجنب يده في ماء قليل أنجس الماء،

(١) البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٥٣٤).

فظن بعض أصحابه أنه أراد النجاسة الحسية، وإنما أراد الحكمية، فإن الفرع لا يكون أقوى من الأصل، ولا يكون الماء أعظم من البدن؛ بل غايته أن يقوم به المانع الذي قام بالبدن، والجنب ظاهره ممنوع من الصلاة، فيكون الماء كذلك طاهراً لا يتوضأ به للصلاة) ١. هـ^(١).

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

(ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)، ومعلوم أن نوحاً لم يغرق ثم خلص، بل نُجِّيَ من الغرق الذي أهلك الله به غيره، كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السِّفِينَةَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وكذلك قوله عن لوط: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ﴾، ومعلوم أن لوطاً لم يصبه العذاب الذي أصابهم من الحجارة والقلب وطمس الأبصار) ١. هـ^(٢).

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧)

كذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ضمنه معنى نجيناه مع بقاء معنى النصر) ١. هـ^(٣).

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

قال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فهذا نبيان كريمان حكما في حكومة واحدة، خص الله أحدهما بفهمها مع ثنائه على كل منهما بأنه آتاه حكماً وعلماً، فكَذَلِكَ العلماء المجتهدون ﷺ للمصيب منهم أجران، وللآخر أجر، وكل منهم مطيع لله بحسب استطاعته، ولا يكلفه الله ما عجز عن علمه) ١. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٨٤ - ٣٨٦). (٢) درء تعارض العقل (٧/٥٠).

(٣) الاستغاثة (٨٢)، وانظر مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٣/٤١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وكل مجتهد مصيب: بمعنى أنه مطيع لله؛ ولكن الحق في نفس الأمر واحد) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فخص سليمان بالتفهم مع أنهما كانا حاكمتين، لم يخص أحدهما بعلم ظاهر) ١. هـ^(٢).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾﴾. (وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان) ١. هـ^(٣).

﴿وَدَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِظًا فَنَظَرَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

(وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ يتضمن البراءة مما سوى الله من الآلهة الباطلة سواء قدر ذلك هوى النفس أو طاعة الخلق أو غير ذلك، بخلاف آدم: فإنه اعترف أولاً بذنبه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله عليه الصلاة والسلام: «دعوة أخي ذي النون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ما دعا بها مكروب إلا فرج الله تعالى كربته»^(٥)) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (إن قول القائل: (لا إله إلا أنت) فيه إفراد الإلهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولاً وعملاً، فالمشركون كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهة أخرى، فلا يخصونه بالإلهية، وتخصيصه بالإلهية يوجب أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يسأل غيره، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفتاححة] فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه، لكن في أمور لا يحبها الله؛ بل يكرهها وينهى عنها، فهذا وإن كان مخلصاً له في سؤاله والتوكل عليه، لكن ليس هو مخلصاً في عبادته وطاعته، وهذا حال كثير من أهل التوجيهات الفاسدة

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/١٥٠).

(٢) منهاج السنة (٥/٣٠٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٥٠٦).

(٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٣٦).

(٥) الترمذي (٣٥٠٥)، وابن السني (٣٤٥) والحديث حسن.

(٦) مختصر الفتاوى المصرية (١٢٨).

أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فإنهم يعانون على هذه الأمور) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [البلد: ٥] - على قول الحسن وغيره من السلف^(٢): ممن جعله من القدرة - دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال جماعة من أهل اللغة: قَدَرَ بمعنى ضيق، ومنه قوله: ﴿فَقَطَّنَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نضيق) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وسواء كان مغاضباً لقومه أو لربه، فكانت مغاضبته من أمر قَدَّرَ عليه، وبصبره صبر لحكم ربه الذي قَدَّرَهُ وقضاه، وإن كان إنما تأذى من تكذيب الناس له) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه «الرب». وإن سأله باسمه «الله» لتضمنه اسم الرب كان حسناً. وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك. إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب، ولهذا قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فإن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٢]. ففعل ما يلام عليه فكان المناسب لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه، والاعتراف بأنه لا إله إلا هو، فهو الذي يستحق أن يعبد دون غيره فلا يطاع الهوى، فإن اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده، وقد رُوِيَ أن يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلمهم وخاف أن ينسبوه إلى الكذب فغاضب. وفعل ما اقتضى الكلام الذي ذكره الله تعالى وأن يقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الإلهية، سواء صدر ذلك [عن]

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٦).

(٢) ذكر الحسن قوله: ظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه. ذكره صاحب زاد المسير (٥/٣٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/١١).

(٤) شرح العمدة - الصيام (١/٩٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/٣٢٦).

هو النفس أو طاعة الخلق أو غير ذلك. ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابق، وفيما يريد به وهو غير حسن.

وأما آدم عليه السلام فإنه اعترف أولاً بذنبه فقال: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به، مما يزاحم الإلهية بل ظن صدق الشيطان الذي ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فدلَّهما بِغُرُورٍ [الأعراف: ٢٢]. فالشيطان غرهما وأظهر نصحهما، فكانا في قبول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسباً لقلوبهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ لما حصل من التفريط، لا لأجل هوى وحظ يزاحم الإلهية وكانا محتاجين إلى أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدتهما، حتى لا يغترا بمثل ذلك، فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره.

وذو النون شهد ما حصل من التقصير في حق الإلهية، بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيء آخر، ما يوجب تجريد محبته لله وتألُّفه له أن يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ فإن قول العبد: لا إله إلا أنت، يمحو أن يتخذ إلهه هواه، وقد روي: «ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع»^(١)، فكمثل يونس صلوات الله عليه تحقيق إلهيته لله، ومحو الهوى الذي يتخذ إلهاً من دونه، فلم يبق له صلوات الله عليه وسلامه عند تحقيق قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ إرادة تزاحم إلهية الحق، بل كان مخلصاً لله الدين إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين.

(و) (أيضاً) فمثل هذه الحال تعرض لمن تعرض له، فيبقى فيه نوع مغاضبة للقدر ومعارضة له في خلقه وأمره، ووساوس في حكمته ورحمته) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «دعوة أخي ذي النون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته» سماها «دعوة» لأنها تتضمن نوعي الدعاء. فقوله: لا إله إلا أنت

(١) روي مرفوعاً بسند تالف رواه الطبراني (٧٥/٢)، وابن عدي (٣٠١/٢)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٣٩/٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٨/١) وله سند آخر تالف في الحلية لأبي نعيم (١١٨/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٦/١٠ - ٢٨٨).

اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر، إمّا بوصف حاله، وإمّا بوصف حال المسؤول، وإمّا بوصف الحالين. كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] فهذا ليس بصيغة طلب، وإنما هو إخبار الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر.

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَا لَغَفِيرٌ لَّنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه.

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه مالك بن الحويرث وقال: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(٢) وأظن البيهقي رواه مرفوعاً بهذا اللفظ.

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله: «أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جدعان.

أذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء

(١) الترمذي (٢٩٢٦) والدرامي (٣٣٥٩) والعقيلي في «الضعفاء» (٣٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٣٨) وابن أبي حاتم في «العلل» (٨٢/٢) وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٥) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٩٣) والحديث في أسانيده ضعف إلا أنه قابل للتحسين، فله شاهد بلفظ: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي...» والحديث حسنه الحافظ ابن حجر في أماليه على الأذكار. والله أعلم.

(٢) البخاري في التاريخ الكبير (١١٥/٢)، وابن حبان في المجروحين (٣٧٦/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» مرفوعاً (٥٧٢ - ٥٧٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٧٨) والأصبهاني في «الترغيب» (١٣٣٧) وابن عبد البر (٤٣/٦) والحديث حسن والله أعلم.

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

قال: فهذا مخلوق يخاطب مخلوقاً فكيف بالخالق تعالى^(١).

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان»، فهذا خبر يتضمن السؤال.

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام: «أَيُّ مَسْئَلَةٍ أَلْصُرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [الأنبياء: ٨٣] فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره، وهي صيغة خبر تضمنت السؤال. وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء، فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه: أنا جائع، أنا مريض، حسن أدب في السؤال. وإن كان في قوله أطمعني وداوني ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب، طلب جازم من المسؤول، فذاك فيه إظهار حاله وإخبار على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب.

وهذه الصيغة «صيغة الطلب والاستدعاء» إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك. فإنها تقال على وجه الأمر: إما لما في ذلك من حاجة الطالب. وإما لما فيه من نفع المطلوب، فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغني من كل وجه فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار وإظهار الحال.

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان، وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده فيطلبه ويسأله، فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول، وتصريح به باللفظ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضي للسؤال والإجابة؛ ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال، فيتضمن السؤال والمقتضي له والإجابة كقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لما قال له: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب

(١) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٤٤/٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٥).

إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١) أخرجاه في الصحيحين.

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب.

وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك. كقول موسى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضي الإجابة. وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. فيه وصف حال النفس والطلب. وقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال، فهذه أنواع لكل نوع منها خاصة.

يبقى أن يقال: فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟.

فيقال: لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشر كان بذنبي، فأصل الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر، والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيء ظالم. وهو الذي أدخل الضر على نفسه، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه. ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني، بخلاف كشف الكرب فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول، إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر، فهذا مقدم في قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه، فجاء بما يُحصَل مقصوده.

وهذا يتبين بالكلام على قوله: (سبحانك) فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي. قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [النحل: ١١٨]. وقال تعالى: «وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» [هود: ١٠١]. وقال: «وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ» ﴿٧٦﴾ [الزخرف]. وقال آدم عليه السلام: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» [الأعراف: ٢٤].

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي في مسلم في دعاء الاستفتاح: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعها فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١)، وفي صحيح البخاري: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة»^(٢)، فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه، فإنه لا يظلم الناس شيئاً، فلا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وهو يحسن إليهم، فكل نعمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

فقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن «الإله» هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل.

وقوله: «سُبْحَانَكَ» يتضمن تعظيمه وتنزيهه عن الظلم وغيره من النقائص؛ فإن التسبيح وإن كان يقال: يتضمن نفي النقائص، وقد روي في حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول العبد: سبحان الله: «إنها براءة الله من السوء»^(٣) فالنفي لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوتاً، وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، والله الأسماء الحسنی.

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه، يتضمن إثبات محاسنه وكماله كقوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ» [البقرة: ٢٥٥]

(١) مسلم (٧٧١).

(٢) مرّ تخريجه. وللسفاريني رسالة خاصة بشرح هذا الحديث اسمها «نتائج الأفكار» طبعت.

(٣) مرّ الكلام عليه.

فنفِي أَخَذِ السَّنَةَ وَالنُّومَ لَهُ، يَتَضَمَّنُ كَمَالَ حَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. يَتَضَمَّنُ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالتَّسْبِيحُ الْمُتَضَمَّنُ تَنْزِيهِهِ عَنِ السُّوءِ، وَنَفْيِ النَّقْصِ عَنْهُ يَتَضَمَّنُ تَعْظِيمَهُ. ففِي قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تَبَرُّتُهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَإِثْبَاتِ العِظَمَةِ المَوْجِبَةِ لَهُ بَرَاءَتَهُ مِنَ الظَّالِمِ. فَإِنَّ الظَّالِمَ إِنَّمَا يَظْلِمُ لِحَاجَتِهِ إِلَى الظُّلْمِ أَوْ لِحِجْلِهِ. وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَاقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهَذَا كَمَالَ العِظَمَةِ.

وَأَيْضاً ففِي هَذَا الدُّعَاءِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ فَقَوْلُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ تَهْلِيلٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تَسْبِيحٌ، وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الكَلَامِ بَعْدَ القُرْآنِ أَرْبَعٌ، وَهِنَّ مِنَ القُرْآنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ».

والتَّحْمِيدُ مَقْرُونٌ بِالتَّسْبِيحِ وَتَابِعٌ لَهُ، وَالتَّكْبِيرُ مَقْرُونٌ بِالتَّهْلِيلِ وَتَابِعٌ لَهُ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ: أَيُّ الكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ»^(١) وَفِي القُرْآنِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النَّصْر: ٣]. وَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: ﴿وَنَحْنُ سُبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البَقَرَةُ: ٣٠].

وَهَاتَانِ الكَلِمَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَقْرُونَةٌ بِالتَّحْمِيدِ، وَالأُخْرَى بِالتَّعْظِيمِ. فَإِنَّا قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ التَّسْبِيحَ فِيهِ نَفْيُ السُّوءِ وَالتَّقَائِصِ الْمُتَضَمَّنِ إِثْبَاتِ المَحَاسِنِ وَالكَمَالِ، وَالحَمْدُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى المَحَاسِنِ. وَقَرْنَ بَيْنَ الحَمْدِ وَالتَّعْظِيمِ كَمَا قَرْنَ بَيْنَ الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَعْظَمٍ مَحْبُوباً مَحْمُوداً، وَلَا كُلُّ مَحْبُوبٍ مَحْمُوداً مَعْظَماً، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ العِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الحُبِّ الْمُتَضَمَّنِ مَعْنَى الحَمْدِ، وَتَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذَّلِّ الْمُتَضَمَّنِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ، ففِي العِبَادَةِ حُبٌّ وَحَمْدٌ عَلَى المَحَاسِنِ، وَفِيهَا الذَّلُّ لَهُ النَّاشِئُ عَنِ عِظَمَتِهِ وَكِبْرِيَاءِهِ، ففِيهَا إِجْلَالُهُ وَإِكْرَامُهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ المَسْتَحَقُّ لِلجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، فَهُوَ مُسْتَحَقُّ غَايَةِ الإِجْلَالِ وَغَايَةِ الإِكْرَامِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْسَبُ أَنَّ «الجَلَالِ» هُوَ الصِّفَاتُ السُّلْبِيَّةُ وَ«الإِكْرَامِ» الصِّفَاتُ الثَّبُوتِيَّةُ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الرَّازِي وَنَحْوُهُ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَيْهِمَا صِفَاتٌ ثَّبُوتِيَّةٌ، وَإِثْبَاتٌ

(١) البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

الكمال يستلزم نفي النقائص، لكن ذكر نوعي الثبوت، وهو ما يستحق أن يُحَبَّ وما يستحق أن يُعَظَّمَ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] وقول سليمان ﷺ: ﴿فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وكذلك قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] فإن كثيراً ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل مذموماً، إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة، فيتضمن إخباراً بمحاسن المحبوب محبة له.

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك. فالأول يُهَابُ وَيُخَافُ ولا يُحَبُّ، وهذا يُحَبُّ وَيُحَمَدُ، ولا يُهَابُ ولا يُخَافُ، والكمال اجتماع الوصفين. كما ورد في الأثر: «إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة» وفي نعت النبي ﷺ: «كان من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه».

فقرن التسبيح بالتحميد، وقرن التهليل بالتكبير؛ كما في كلمات الأذان، ثم إن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا أفرد، فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم؛ ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً؛ بل تتضمن أنه لا يستحق كمال الحب إلا هو. والحمد هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب، فالإلهية تتضمن كمال الحمد؛ ولهذا كان «الحمد لله» مفتاح الخطاب؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم. و«سبحان الله» فيها إثبات عظمته كما قدمناه؛ ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة] وقد قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»^(١) رواه أهل السنن وقال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم أن يستجاب لكم»^(٢) رواه مسلم، فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم.

ففي قوله: «سبحان الله وبحمده» إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده. وأما قوله: (لا إله إلا الله والله أكبر) ففي لا إله إلا الله [إثبات] محامده فإنها كلها داخله في إثبات إلهيته، وفي قوله: (الله أكبر) إثبات عظمته؛ فإن الكبرياء تتضمن العظمة ولكن الكبرياء أكمل.

(١) أبو داود (٨٦٩)، وأحمد (٤/١٥٥)، وابن ماجه (٨٨٧)، والطيالسي (١٠٠٠)، وابن خزيمة (٦٧٠/٦٠٠)، والبيهقي (٢/٨٦)، والحاكم (١/٢٢٥)، والدارمي (١/٢٩٩) والطبراني (١٧/٧٩٠)، وابن حبان (١٨٩٨ - الإحسان) والحديث حسن إن شاء الله.

(٢) مسلم (٤٧٩).

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: «الله أكبر» فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذبت»^(١) فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أن الرداء أشرف، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه. وتضمن ذلك التعظيم، وفي قوله: سبحان الله، صرح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم، فصار كل من الكلمتين متضمناً معنى الكلمتين الآخرين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها.

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر؛ فإنه يدل على الذات، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر، لكن هذا باللزوم، وأما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة، ودلالتهما على أحدهما بالتضمن.

فقول الداعي: «لا إله إلا أنت سبحانك» يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتي هن أفضل الكلام بعد القرآن، وهذه الكلمات تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ففيها كمال المدح.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرئ نفسه عن هذا الوصف، لا سيما في مقام مناجاته لربه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»^(٢) وقال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»^(٣) فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب، ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام، بل يقولون كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ.

فصل

وأما قول السائل: لم كانت موجبة لكشف الضر؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. والذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه كما

(٢) البخاري (٤٦٣١)، ومسلم (٢٣٧٦).

(١) مسلم (٢٦٢٠).

(٣) البخاري (٤٦٠٤).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال] فأخبر أنه سبحانه لا يعذب مستغفراً، وفي الحديث: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى]، فقله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب وهو استغفار، فإن هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة.

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ تحقيق لتوحيد الإلهية، فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والمعوق له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجاً عن قدرة العبد فهو من الله، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سبباً للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه؛ فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوبه. وهذا معنى ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: «لا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ»^(٢) ١. هـ.^(٣)

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِئُونَ فِي الْأَخْيَرِ وَيَدْعُونَكَ رَبِّاً وَرَهْباً وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾^(٤).

لذلك امتن الله سبحانه على زكريا حيث قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُ﴾ قال بعض العلماء: ينبغي للرجل أن يجتهد إلى الله في إصلاح زوجته) ١. هـ.^(٤).

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٦) فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه،

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٢٤٣ - ٢٥٦)، (٣/١٢١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٥/٣٢٤).

وقد بين أنه أرسل إليها روحه، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ﴾ ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ ۖ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١١﴾ ﴿مريم﴾ ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَوَرِّمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ النَّبِيَّ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]. وقال: ﴿وَاللَّيَّ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۗ﴾ ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ ﴿مريم﴾.

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها، والجيب هو الطوق الذي في العنق، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيباً، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدارهم ونحوها، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه، هو ذلك الجيب المعروف في اللغة، وذكر أبو الفرج وغيره قولين: هل كانت النفخة في جيب الدرع؟ أو في الفرج، فإن من قال بالأول قال في فرج درعها، وإن من قال هو مخرج الولد قال الهاء كناية عن غير مذكور، لأنه إنما نفخ في درعها، لا في فرجها وهذا ليس بشيء، بل هو عدول عن صريح القرآن، وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع، فمراده أنه ﷺ لم يكشف بدنهما، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة.

فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها.

والمقصود إنما هو النفخ في الفرج، كما أخبر الله به في آيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف.

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين: من نفخ جبريل ومن أمه مريم، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة؛ فإن ذلك نفخ

في بدن قد خلق، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد، ولا كانت مريم حملت، وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩) . . . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٠) [مريم]. فلما نفخ فيها جبريل حملت به، ولهذا قيل في المسيح (روح منه)، باعتبار هذا النفخ. وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه، وهو جبريل، هو الروح الذي خاطبها، وقال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، فقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أو ﴿فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] أي من هذا الروح الذي هو جبريل، وعيسى روح من هذا الروح، فهو روح من الله، بهذا الاعتبار، ومن لا ابتداء الغاية) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (إن الكتب دلت على أن المسيح تجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء البتول، وهكذا هو في الأمانة التي لهم، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر في غير موضع، أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا﴾ (١٦) فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١)، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ﴾ (١٧) [التحریم]. فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً) ا. هـ (٢).

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٦).

(فقال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٦) وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) [المؤمنون].

قال قتادة^(١): «أي دينكم دين واحد، وربكم رب واحد، والشريعة مختلفة». وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس^(٢): «إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» أي دينكم دين واحد. قال ابن أبي حاتم^(٣): «وروي عن سعيد ابن جبير، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد نحو ذلك. وقال الحسن^(٤): «بين لهم ما يتقون وما يأتون. ثم قال: إن هذه سنتكم سنة واحدة».

وهكذا قال جمهور المفسرين.

و«الأمة»: الملة والطريقة، كما قال تعالى: «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٢] كما يسمى «الطريق» إماماً، لأن السالك فيه يأتى به، فكذلك السالك يؤمّه ويقصده، و«الأمة» أيضاً معلم الخير، الذي يأتى به الناس، كما أن «الإمام» هو الذي يأتى به الناس. وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً، وأخبر أنه (كان أمة).

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً، لا يتفرقون فيه، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»^(٥) وقد قال تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» [الشورى: ١٣]. ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً، ولا يختلفون، مع تنوع شرائعهم) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه ويشكروه ويعبدوه وأرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوه وحده، ويكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥]. وقال: «وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ» [الزخرف: ٢٥]. وقد أمر الرسل كلهم بهذا، وأن لا يتفرقوا فيه فقال: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»^(٧)، وقال: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» [٥١] وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» الآية [المؤمنون].

(١) عزاه صاحب الدر (٣٣٥/٤) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ابن جرير (٨٥/١٧) برواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) ابن كثير (١٩٤/٣). (٤) ابن كثير (١٩٤/٣).

(٥) مرّ تخريجه. (٦) مجموع الفتاوى (٣٢٦/١٤ - ٣٢٨).

قال قتادة^(١): أي دينكم واحد، وربكم واحد، والشريعة مختلفة. وكذلك قال الضحاك^(٢)، وعن ابن عباس^(٣) أي دينكم دين واحد، قال ابن أبي حاتم، وروي عن سعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن^(٤) ونحو ذلك، قال الحسن^(٥): بين لهم ما يتقون، وما يأتون، ثم قال: إن هذه سنتكم سنة واحدة، وهكذا قال جمهور المفسرين. و(الأمّة) الملة والطريقة، كما قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. كما تسمى الطريق إماماً؛ لأن السالك فيها يؤتم به، فكذلك السالك يؤمه ويقصده. والأمّة أيضاً معلم الخير الذي يأتّم به الناس، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً، وأخبر أنه كان أمة^(٦) ١ هـ.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.

(مع أن ابن الزبيري^(٧) وغيره من المشركين تعلقوا بالقياس الفاسد في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ فقياس المسيح على الأصنام بكونه معبوداً وهذا معبود، وهذا من جهله بالقياس فإن الفرق ثابت بأن هؤلاء^(٨) أحياء^(٩) ناطقون، وهم صالحون يتألمون بالنار فلا يعذبون لأجل كفر غيرهم، بخلاف الحجارة التي تلقى في النار إهانة لها ولمن عبدها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [الزخرف: ١٠٠].

وقال رحمه الله: (وهذا كان وجه مخاصمة ابن الزبيري لما أنزل الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ ءَأَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٦٩﴾، فإن الخطاب للمشركين لا لأهل الكتاب.

(١) عزاه لقتادة في الدر (٣٣٥/٤) عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) لم أجده ولعله في ابن أبي حاتم ولم يطبع.

(٣) ابن جرير (٨٥/١٧) وعزاه في الدر لابن أبي حاتم.

(٤) عبد الرحمن هو ابن زيد بن أسلم.

(٥) ابن كثير نقلاً عن تفسير الحسن البصري (١٣٦/٢).

(٦) مجموع الفتاوى (٢١٩/٨ - ٢٢٠).

(٧) قصة عبد الله بن الزبيري في ابن جرير (٩٧/١٧).

(٨) الإشارة إلى المسيح وعزير والملائكة. (٩) في الأصل: «أحياناً» وهو خطأ.

(١٠) الصفدية (١٤١/١).

والمشركين لم يعبدوا المسيح وإنما كانوا يعبدون الأصنام، والمراد بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ الأصنام، فالآية لم تتناول المسيح لا لفظاً ولا معنى.

وقول من قال: إن الآية عامة تتناول المسيح ولكن بيان تخصيصها غلط منه، ولو كان ذلك صحيحاً لكانت حجة المشركين متوجهة؛ فإن من خاطب بلفظ العام يتناول حقاً وباطلاً لم يبين مراده توجه الاعتراض عليه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧] أي هم ضربوه مثلاً، كما قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]. أي جعلوه مثلاً لآلهتهم، ففاسوا الآلهة عليه وأوردوه مورد المعارضة فقالوا: إذا دخلت آلهتنا النار لكونها معبودة فهذا المعنى موجود في المسيح فيجب أن يدخل النار، وهو لا يدخل النار فهي لا تدخل النار، وهذا قياس فاسد لظنهم أن العلة مجرد كونه معبوداً، وليس كذلك، بل العلة أنه معبود ليس مستحقاً للثواب، أو معبود لا ظلم في إدخاله النار.

فالمسيح والعزير والملائكة وغيرهم ممن عُبدَ من دون الله وهو من عباد الله الصالحين، وهو مستحق لكرامة الله بوعده الله وعدله وحكمته، فلا يعذب بذنب غيره، فإنه لا تزر وازره وزر أخرى. والمقصود بإلقاء الأصنام في النار إهانة عابديها، وأولياء الله لهم الكرامة دون الإهانة، فهذا الفارق بين فساد تعليق الحكم بذلك الجامع، والأقيسة الفاسدة من هذا الجنس) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [٥٧] وإنما يخرج من هذا من عُبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله. فهم الذين سبقت لهم الحسنى، كالمسيح والعزير وغيرهما، فأولئك (مبعدون)) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فإنه لما نزل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ عارضوا بالمسيح حتى فرق الله تعالى بينهما بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [٥٧] [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [٥٧] وَقَالُوا ءَأَلْهَتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [٥٨] [الزخرف]. فمن عارضوا خبره بمثل هذا كيف لا يدعون معارضة القرآن

وهم لا^(١) يقدرون على ذلك وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ خطاب للمشركين لم يدخل فيه أهل الكتاب، ولا تناول اللفظ المسيح كما يظنه ظانٌّ من الظانِّين بل هم عارضوه بالمسيح من باب القياس، يقولون: إذا كانت الأنبياء^(٢) من حسب جهنم لأنها معبودة، كذلك المسيح وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧] فإنهم جعلوه مثلاً لآلهتهم ولم يوردوه لشمول اللفظ كما يظن ذلك بعض المصنفين في الأصول، ولهذا بيّن الله الفرق بين المسيح وبين آلهتهم بأن المسيح عبد الله يستحق الثواب ولا يظلم بذنب غيره، بخلاف الحجارة، وإن في جعلهم من الأنبياء حسب جهنم إهانة له بذلك من غير ظلم ثم انتشرت دعوته في أرض العرب ثم في سائر الأرض إلى هذا الوقت، وآيات التحدي قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (مثل معارضتهم له لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ فقام ابن الزبيري وغيره فقالوا: قد عبد المسيح، فالهتتنا خير أم هو؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾، أي يضحجون.

﴿وَقَالُوا ءَأَلْهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾ [الزخرف]، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء]، وقد ظن طائفة من الناس أن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لفظ يعم كل معبود من دون الله لكل أمة، فيتناول المسيح وغيره، وجعلوا هذا مما استدلوا به على عموم الأسماء الموصولة، مثل «من» و«ما» و«الذي». واستدل بذلك بعضهم على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب.

قالوا: لأن اللفظ عام، وآخر بيان المخصص إلى أن نزل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا خطأ، ولو كان قول هؤلاء صحيحاً، لكانت معارضته^(٤) المشركين صحيحة فإن من سمع اللفظ العام ولم يسمع المخصص، فأورد على المتكلم، كان إيراده مستقيماً.

(١) كذا في الأصل، ولعل «لا» زائدة. (٢) كذا في الأصل، وصوابها: الأصنام.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية (١٤٥ - ١٤٦). (٤) كذا في الأصل، والصواب: معارضة.

إذا كانت آلهتنا دخلوا النار لكونهم معبودين، وجب أن يكون كل معبود يدخل النار، والمسيح معبود فيجب أن يدخلها. فعارضوه بالقياس، والقياس مع وجود الفارق المؤثر قياس فاسد، فبين الله الفرق بأن المسيح عبدٌ حي مطيع لله، لا يصلح أن يُعبد^(١) لأجل الانتقام من غيره، بخلاف الأوثان، فإنها حجارة، فإذا عُذبت لتحقيق عدم كونها آلهة، وانتقاماً ممن عبدها، كان ذلك مصلحة، ليس فيها عقوبة لمن لا يصلح أن يُعاقب.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧]. أي جعلوه مثلاً لآلهتهم فقاوسوها به، فهذا حال من عارض النص الخبري بالقياس الفاسد، وهو حال الذين يعارضون النصوص الإلهية بأقيستهم الفاسدة، فيقولون: لو كان له علمٌ وقدرة ورحمة وكلام وكان مستوياً على عرشه، للزم أن يكون مثل المخلوق الذي له علم وقدرة ورحمة وكلام ويكون مستوياً على العرش، ولو كان مثل المخلوق للزم أن يجوز عليه الحدوث، وإذا جاز عليه الحدوث امتنع وجوب وجوده وقدمه) ا.هـ^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

(وبين تعالى الفرق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ بين أن من كان صالحاً نبياً أو غير نبي لم يعذب لأجل من أشرك به وعبده وهو بريء من إشراكهم به) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فمن سبقت له من الله الحسنى، فلا بد أن يصير مؤمناً تقياً، فمن لم يكن من المؤمنين لم يسبق له من الله حسنى، ولكن إذا سبقت للعبد من الله سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به إلى تلك السابقة، كمن سبق له من الله أن يولد له ولد. فلا بد أن يظن أن أحداً سبق له من الله حسنى بلا سبب فقد ضل، بل هو سبحانه مُيسر الأسباب والمسببات، وهو قد قدر فيما مضى هذا وهذا) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبتاه عنه، كما كان النبي ﷺ إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالاً يوردونه

(١) كذا في الأصل، والصواب: «يعذب» ونحوه.

(٢) درء تعارض العقل (٧/ ٥٥ - ٥٩). (٣) الرد على الأختائي (٩٧ - ٩٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٦٦/٨).

على القرآن. فإنه كان يجيبه عنه كما أجاب ابن الزبير لما قاس المسيح على آلهة المشركين، وظن أن العلة في الأصل بمجرد كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي كل معبود غير الله فإنه يعذب في الآخرة، فجعل المسيح مثلاً لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف] فبين سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١١﴾﴾ وبين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلاً محضاً لا يوجب علماً؛ لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل، فإن الأصنام إذا جُعِلُوا حصباً لجهنم، كان ذلك إهانة وخزياً لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب، بخلاف ما إذا عُذِبَ عبادُ الله الصالحون بذنب غيرهم، فإن هذا لا يفعله الله تعالى، لا سيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل - سلفهم وخلفهم - الذين يقولون: إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة، ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته، ولا يحمل عليه سيئات غيره، بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال رسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ رَبِّيَ، فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقًّا نَبَعْتَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل: إنه يجوز منه - تعالى - فعل كل شيء، وأن الظلم هو الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، فهؤلاء يقولون: إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله لدلالة خبر الصادق أو بالعادة، وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله.

وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين في الجنة لا يعذبهم في النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، فضلاً أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهية لفعلهم ونهيهم عن ذلك، ومن زعم أن لفظ «ما» كانت تتناول المسيح وأخر بيان العام، أو أجاب بأن لفظ «ما» لا يتناول إلا ما لا يعقل فالقولان ضعيفان، كما قد بسط في موضعه.

وإنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياس فاسد، فبين الله تعالى فساد

القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع) ا. هـ (١).

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا
إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٤).

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ
﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» (٢). فهم يعودون غلفاً لا
مختونين) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ما ثبت في الصحيح: «أنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ
﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: النساء والرجال ينظر بعضهم إلى
بعض؟ قال: نعم، قالت: وافضحته. قال: الأمر أشد من ذلك») ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾
فالطي غير التبديل) ا. هـ (٥).

وقال ابن القيم رحمه الله: («عن ابن عباس قال: السجل كاتب كان للنبي ﷺ».
وقال ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية يقول: هذا الحديث
موضوع»، ولا يعرف لرسول الله ﷺ كاتب اسمه سجل قط) ا. هـ (٦).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضَ بِرِثْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥).
(قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، أي من بعد اللوح المحفوظ،
يسمى ما يكتب في الذكر ذكراً كما يسمى ما يكتب فيه كتاباً؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ لِقَوْمٌ
كَرِيمٌ﴾ (٧) في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ [الواقعة] ا. هـ (٧).

وقال رحمه الله: (وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضَ بِرِثْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٥﴾ هي أرض الجنة) ا. هـ (٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧).

(١) الجواب الصحيح (١/٢٢٢ - ٢٢٥). (٢) البخاري (٦٥٢٤)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/٢٤٩).

(٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٣)، جامع المسائل (٤/٢٢٦).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (٢٠٣). (٦) تهذيب السنن (٤/٢٩٩).

(٧) مجموع الفتاوى (١٨/٢١١). (٨) مجموع الفتاوى (١٥/١٠٩).

(قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧)، وقال النبي ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»^(١) ولأن هذا من جملة إحسانه إلى الخلق بالتعليم والهداية، وبيان ما ينفعهم وما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فبين تعالى أن هذا من مننه على عباده المؤمنين) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧)، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء والرجال الجاهل بمرضاهم، وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر، ويتركونه من الخير رأفة بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم) ا.هـ^(٣).

(١) البزار (٢١٧/٢) الحاكم (٣٥/١) والطبراني في الصغير (٩٥/١) وابن سعد (١٩٢/١) والحديث حسن.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣١/٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩٠/١٥).